المحاضرة الأولى : المنهج الوصفي

مصادر ومراجع المحاضرة :

سيبويه ، الكتاب
السيوطي، المزهر في علوم اللغة
رمضان عبد التواب ، المدخل إلى علم اللغة ، ومناهج البحث اللغوي
علي زوين، منهج البحث اللغوي بين التراث والدرس اللغوي الحديث
ابن سنان الخفاجي، سر الفصاحة،
صالح بلعيد، في المناهج اللغوية وإعداد الأبحاث
رياض قاسم، اتجاهات البحث اللغوي الحديث في العالم العرب
حمد رضا، رد العامي إلى الفصيح
أنيس فريحة ، معجم الألفاظ العامية

السؤال أو الإشكالية التي تطرح وتتكرر دائما هي: هل نجد بذورا أولية لهذا للمنهج الوصفي في الدراسات اللغوية العربية المبكرة ؟ بتعبير آخر هل بدأ النحو العربي وصفيا أو معياريا؟ وقبل ذلك هل ملك العرب قديما منهجا أو مناهجا أقاموا عليها دراساتهم؟

يمكن أن نجيب عن هذه التساؤلات كالأتي :

- النقل والرواية : أي الاتصال المباشر بالواقع اللغوي، بمعنى تلقي النصوص من أفواه الرواة ومشافهة الأعراب والنقل عنهم مما مهّد إلى استقراء اللغة واستنباط القواعد نتيجة لهذا الاستقراء، فقد درج النحاة واللغويون الأوائل على النقل المباشر من البادية أو غير المباشر من أفواه الأعراب الوافدين إلى المدن والأمصار، " هذه المرويات هي التي هيأت للدارسين الأولين مواد دراستهم سواء كان منها ما يتصل بالأدب أم ما يتصل باللغة".

إن منهج البحث في المدرسة الكوفية التقليدية في بداية نشأتها كان أقرب إلى المنهج الوصفي باعتماد الكوفين أساسا على المسموع وبخاصة النصوص وعدم اخضاعها كلية إلى القواعد بل استنباط القواعد منها وتوجيهم نصوص القرآن واللغة والأدب هذا المنحى من المنهج وعدم اعتمادهم الكبير على التأويلات البعيدة المتكلفة، وابتعادهم عن اخضاع الدرس اللغوي عن روح منطق البحث، ويمكن تلخيص منهج البحث في المدرسة الكوفية "اعتداد الكوفين بالنقل، ونتاولهم القياس الكوفين بالنقل، وتناولهم القياس تناولا لا يمس روح النص اللغوي، وجنوحهم عن اتباع التأويلات البعيدة والتوجيهات المتكلفة، والامعان المنطقي وتعديلهم القواعد حتى تتلاقى مع المسموع، وتفسيرهم النصوص القرآنية والنصوص اللغوية الأخرى تفسيرا لا يكاد يخالف الظاهر، وميلهم عن اخضاعها لما تواضعوا عليه من أصول، وثم بناء كثير من أحكامهم على القراءات التي سبق للبصريين أن أكرهوا جانبا منها على قبول معنى خاص هدفوا إليه وابعدوا جانبا آخر منها لأنه استعصى على الخضوع لقواعدهم وأبعد في الخروج على تأويلاتهم ثم التماس ذلك في أقوال أئمتهم وأعمالهم ووجد أنهم يلتزمون الدقة فيه ويتنكبون مخالفته ويتحرجون من الخروج عليه ".

تناول المنهج الوصفي الظاهرة اللغوية على أساس شكلي وليس على أساس معنوي، والشكل هو الظاهر والمنهج الوصفي " يقوم على أساس وصف اللغة أو اللهجة في مستوياتها المختلفة، أي في نواحي أصواتها، ومقاطعها وأبنيتها ودلالاتها وتراكيبها، وألفاظها، أو في بعض هذه النواحي، ولا يتخطى مرحلة الوصف ".

1. أسس المنهج الوصفي :

- مما تقدم نستنتج أن العرب قديما قد سلكوا مسالك أولية في البحث اللغوي، عندما كانوا يجمعون اللغة (السماع - المشافة)؛ حيث قاموا بالتدريب والتصنيف والفهرسة، وأقاموا مدونات انتجت معاجم عامة ومتخصصة ويمكن أن يعدّ ذلك صفة أولية من صفات البحث العلمي المنهجيّ، وبخاصة في باب التحريات اللغوية التي كانت تتّجه إلى البادية؛ ويضاف إلى ذلك القوانين الصارمة المحدودة في الزمان والمكان، كذلك ما قاموا به من تبويب كتب متخصصة في الحقول الدلالية .
- بعد استقراء المادة اللغوية المحصلة، استنبطت منها القواعد الكلية والجزئية أي جعلت القاعدة خاضعة للاستقراس وليس العكس، أما شطرها الثاني فقد أخذت بالقواعد التي انتهت إليها وأخضعت لها المادة اللغوية القديمة والمستجدة، وتوقفت في استقرائها عند عصر اصطلح عليه بعصر الاستشهاد الذي يعد قدحا كبيرا في تاريخ الدراسات

اللغوية العربية، فانقلب الميزان من الوصف إلى المعيار، من اخضاع القاعدة إلى اخضاع المادة اللغوية، من استمرارية الاستقراء والأخذ إلى التوقف عنها.

- لقد كان علم العربية في بداية أمره معرفة من المعارف ثم أصبح علما من العلوم بعد تطوّر منهج النظر في نصوص اللغة.

2. خصائص المنهج الوصفي : يتميّز المنهج الوصفي عن غيره من المناهج بأنّه:

أ. يهتم باللغة المنطوقة ويجعلها هدف البحث اللغوي، لأنّ التغيرات أكثر ما تظهر على اللغة المنطقوقة.

ب.يقتص على الجانب الشكلي في وصف الظواهر اللغوية، وطرح كل ماهو غير شكلي ولا تحدّه الضّوابط التركيبية للوحدات اللّغوية.

ج. لا يعير اهتماما للمنطق الأرسطي لأنّه يؤدي إلى اضطراب والجدل الذهني، ويهتم بمنطق اللغة الذي يؤدي إلى التفكير المنظم في تناول مظاهر اللغة وعناصرها وتقسيم فصائلها وأنواعها.

د. يستهدف وصف الظاهرة اللغوية دون الوقوف على مراحل تطوّرها، بل يصفها كما هي من حيث اطّراد وشيوع قواعدها.

3. أسسها : من أسس المنهج الوصفي :

- الاستقراء : حيث يقيم الواصف دراسته على الوقوف على كيفية التي تنفد بها اللغة على ألسنة المتكلمين ، ويشترط في ذلك :
  - تحديد الزمان : حيث يهتم بتحديد الفترة الزمنية التي وقعت فيها تلك الدراسة.
  - تحديد المكان : وذلك بتحديد المساحة المكانية بهدف تحديد المدوّنة؛ كون اللغة في تطوّر مستمر بتغيّر الأزمنة والأمكنة، حيث يقع اهتمامه على عيّنة محدّدة تجرى عليها الدراسة، فيوضّح حجم هذه العيّنة وسبب اختيارها.
  - تحديد مستوى الأداء : معنى هذا الاهتمام بالمستويات اللغوية (فصحى – وسطى - عامية) أونوع الفن المتعامل معه (شعر – نثر- قصة) فيهتم بدراسة اللغات واللهجات على حد سواء بهدف الوصول إلى استنباط قواعد كليّة تنطبق عل اللغات كلها، فيركز على كل المستويات، بدءا بالأصوات ؛ أي وصف الأصوات وقواعد تشكيلها

للوقوف عند طبيعتها، ويهتم بجانب وإصدار الأصوات أو الجانب النطقي والجانب الفيزيائي لها ، والجانب السمعي ،كما اعتنى بالنظام الصرفي ، أي المستوى الصرفي الذي يعتمد بدوره نتائج البحث الصوتي ، فيبين مختلف البنى الإفرادية، ويحدد أنواعها وأشكالها وصورها.

- التصنيف : _ الملاحظة الدقيقة، تحديد أوجه الاختلاف والاتفاق
- التقعيد : وضع القواعد المناسبة لما لاحظه الواصف بعد الاستقراء والتصنيف.

4. نماذج تطبيقية عن المنهج الوصفي في التراث والدراسات الحديثة

أ. في كتب التراث:

- هناك نصوص كثيرة في كتب اللغة ذات عبارات وصفية ، كقولهم:
- [عربي جيد]، " ... وإن قدمت الاسم فهو عربي جيد كما كان ذلك عربيا جيدا وذلك قولك زيدا ضربت"
- [وزعموا أن بعض العرب]، " شهر ثرى وشهر ترى وشهر مرعى يريد ترى فيي؛ فهذا ضعيف والوجه الأكثر الأعرف النصب وإنما شبهوه بقولهم الذي رأيت فلان حين لم يذكروا الهاء...."
- [ومن العرب] "ومن العرب من يثقّل الكلمة إذا وقف عليها ولا يثقّلها في الوصل ....."
- [وسمعنا من يوثق من العرب يقول] اجتمعت أهلُ اليمامة
- [هذا باب استكرهه النحويون... على غير ما وضعت العرب]،" هذا باب استكرهه النحويون وهو قبيح فوضعوا الكلام على غير ما وضعت العرب، وذلك قولك : ويح له وتب، وتبا لك وويحا؛ فجعلوا { التب} بمنزلة {الويح}، وجعلوا {ويح}بمنزلة {التب} فوضعوا كل واحد منهما في غير الموضع الذي وضعته العرب"
- [فزعم أنها عربية]، " هذ ا باب ما ينتصب في التعظيم والمدح : وإن شئت جعلته صفة فجرى على الأول، وإن شئت فابتدأته، وذلك قولك : الحمد لله الحميد هو، والحمد لله أهل الحمد، والملك لله أهل الملك ..... وسمعنا العرب يقول : الحمد لله ربِّ العالمين فسألت عنها يونس فزعم أنها عربية "

- [...إلا أن الاستعمال لم يأت في ذلك]،" من هذا الباب قولهم : أرأيت زيجا ما فعل؟ وفي التثنية والجمع: أرأيتكما وأرأيتكم، والتاء في ضمير الفاعل مفردة في جميع الأحوال ، وإن كان المخاطب واحدا مذكرا أو مؤنثا أو مجموعا، والقياس لا يمنع تثنية ذلك وجمعه كما لم يمنع من ماضي {يدع}و {يذر}؛ إلا أن الاستعمال لم يأت في ذلك ....."
- [والعرب تستعمل]،"والعرب تستعمل الواو بمعنى (رُبَّ) فيقولون : وبلد قطعتُ، يريدون: ربَ بلد"
- [وما أظن أن العرب فاهت بذلك يوما ما]،"إن المفتوحة المخففة: عطفها على (إن) المكسورة في قوله :

إمّا أقمت وأما أنت مرتحلا فالله يكلأ ما تأتي و تذرُ"

الرواية بكسر إن الأولى وفتح الثانية؛ فلو كانت المفتوحة مصدرية، عطف المفرد على الجملة..... وما أظن أن العرب فاهت بذلك يوما ما "

- [وزعم يونس أنه سمع رؤبة يقول : (ما جاءت حاجتك)فرفع]
- [واعلم أن ناسا من العرب يجعلون هلم بمنزلة الأمثلة التي أخذت من الفعل، يقولون : هلمي وهلما وهلموا]
- "[المناظرة "المسألة الزنبورية"] وهي سؤال طرحه الكسائي على سيبويه في مجلس ، وفحوى السؤال قول العرب (كنت أظنّ العقرب أشدُّ لسعة من الزنبور فإذا هو هي) أو (فإذا هو أياها)....."

ب. الدراسات الحديثة:

من معايير المنهج الوصفي الأساسية تحليل أنواع الصيغ والمفردات اللغوية والكشف عن الأنظمة النحوية والصرفية للغة الموصوفة كنظام النفي والاستفهام والتجمعات المورفيمية ونظام السوابق واللواحق..إلخ فمن حيث الصيغ ، يجب على المحلل أن يقوم ببيان أنواع الصيغ للغة التي يحللها، وقواعد تبديل الصيغة تتشكل أنظمة جديدة كنظام النفي أو الاستفهام في الجملة، وكذلك المعالم الخاصة الموروثة في اللغة موضوع البحث.

من الأمثلة التطبيقية على التحليل الفونيمي والمورفيمي:

أ) حصر الفونيمات عن طريق ما يعرف فنيا باسم الثنائيات الصغرى Minimal pairs وذلك بأن يمتحن كل كلمتين تتفقان تماما في كل الأصوات ما عدا واحدا مثل:[سلب، سقب، شطب، شحب]، فإذا استلزم التغيير الصوتي تغييرا في المعنى يعلم حينئذ أنهما فونيمان مختلفان (ل)و(ق)و(ط)و(ح).

ب) إذا كان هناك تقابل أكيد في المعنى أمكن للباحث أن يعدهما مورفيمين منفصلين، ولكن إذا كان المورفيمان يحملان نفس المعنى ويستعملان في موقعين مختلفين اعتبرهما ألمرفيمات، لمورفيم واحد.

نحو: يكتبان ، ويكتبون، كل منهما يحمل معنى خاصا فهما إذن مورفيمان منفصلان، ف(ان) تدل عل اسناد إلى اثنين، و(ون) تدل على الاسناد إلى الجماعة.

يهتم المنهج الوصفي باللغة المنطوقة، ويقتصر على الجانب الشكلي في صنعه الظواهر اللغوية وذلك عن طريق الوصف الدقيق لأصوات اللغة وأبنيتها وتراكيبها ودلالات ألفاظها داخل النص، ويعتمد في كثير من الدراسات، الإحصاء من أجل حصر المفردات أو التعرف على الأبنية في ديوان ما مثلا، أو على الثروة اللفظية في شعر شاعر ما مثلا، وما يندرج في لغته من أضداد وترادف ومشترك لفظي، ويستعمل الإحصاء للإفادة في إعداد المعجمات، وفي إعداد دراسة لغوية عن لغة شاعر ما، أو في إعداد كتاب تعليمي.

⟸من بين الأعمال اللغوية الحديثة، التي أفاد منها المنهج الوصفي (الأطلس اللغوي) ، تميّز عملان بمنهجها الوصفي، ويندرج العملان في موضوع واحد هو وصف اللهجة اللبنانية في قطاع جغرافي معين.

⟸وقد تبدّى المنهج الوصفي ، في هذين العملين، عبر نقطتين :

* الأولى : بدت في طريقة جمع المادة اللغوية، فالمؤلفان حددا القطاع الجغرافي (المكاني) الذي أخذت منه الألفاظ، فأحمد رضا يسجل لهجة يسمعها كل يوم، بل كل ساعة، على حد قوله، وهي لهجة جبل عاملة (جنوب لبنان، وساحل دمشق وما يليه من سفوح لبنان، وقد جمع ما يزيد عن ألف وأربعمائة مادة ، أما أنيس فريحة فقد أخذ مادته من أبناء قريته (رأس المتن)، وقد جمع ما يزيد على الأربعة ألالاف مادة.

- بالقارنة بين طبيعة المكانين، نجد أن تحديد المكان عند أنيس فريحة ينسجم أكثر مع المنهج الوصفي أكثر من تحديد أحد رضا، فالرقعة الجغرافية التي حددها تشمل عل قطاعات لغوية متعددة.

* الثانية: وقد بدت في تحديد المصدر البشري الذي أخذت عنه المادة، فأحمد رضا يعمد إلى أبناء بلدته ومن جاورهم ليسجل ما يتفوهون به، وانيس فريحة يأخذ عن أبناء قريته، فكان يتلفظ من أفضل المصادر وأثبتها افواه الناس .

- وقد شرح أنيس فريحة كيف تلقّط الألفاظ من أفواه الناس، فكان ذلك "وهم عني في غفلة لئلا يغيّروا ويبدّلوا كما يميل القرويون أن يفعلوا إذا حاولوا أن يكلّموك ظنّا منهم أنّك تعيب غ=عليهم لغتهم الخاصة، كنا إذا سمعنا حديثا ،ونحن في سهراتهم وحفلاتهم وأفراحهم ومآتمهم، ندوّن ما نخاله عاميّا".
- أما أحمد رضا فلم يتعرض إلى شرح طريقة أخذه المادة عن الناس، لكن مقدم الكتاب سليمان ظاهر ، يذكر شيئا عن طريقة هذا الجمع إذ يقول " كان يأخذ الكلمات العامية عن العوام كما يلفظونها في موارد استعمالها في مرافق حياتهم بمختلف صناعاها وحرفها، فكان يسأل ولا يملّ من السؤال كل ذي حرفة عن أدواتها ولا يستكنف من ذلك، ويقيدها ثم يعرضها على أمهات الكتب اللغوية..... ولم يكن يغفل شيئا مما يدور على ألسنة عامة ديار الشام.."
- وقد ذهب هذان المؤلفان (أحمد رضا)و (أنيس فريحة) إلى تأصيل اللفظ العامي، وتحديد الجذور المنبتة له، هذا على مابين المؤلفين من اختلاف في رد هذا اللفظ، ففي حين يعمل أحمد رضا على رد العامي إلى العربي الفصيح، يذهب أنيس فريحة إلى تسليط الضوء على الدوائر السريانية والآرامية والعبرية في العامي.